القرآن الكريم و بلاغة العرب

قلنا إن المباحث التى يحثها المسلمون والكتب الكثيرة التى كتبت فى شرح القرآن وتفسيره دارت كلها حول دائرة واحدة ، وهى اثبات معجزة القرآن ، فقد ادركوا مافى القرآن من الابداع الفنى على أنه كلام الله تعالى . وربما جاءهم ذلك بطريق الاعتقاد اكثر منه بطريق الادراك الصحيح لاسرار هذا الكتاب الكريم واعتقادهم انه معجز قبل ان يبحثوا فيه . فلم يبحثوا عما فيه من البلاغة وفنون الادب وانواعه بحثا بعيدا عن الفكرة الدينية ولم يقصدوا مابه من الوجهة الفنية الصرفة أولا وبالذات على رأى المنطقيين . وقالوا إن بلاغته فوق طاقة البشر . بلاغة الهية لاتجارى . فلم يمكن أن يكون له من الاثر الذى كان يكون لكتاب مثله فى لغة أمة جاء بأفصح بيان فيها واصح نموذج لها . وكان من الممكن فهم بلاغة القرآن على انها بلاغة الهية لاتجارى ولكن يقتدى بها وتقلد فى اساليبها وأنواعها ولم يكن ذلك محذورا علينا ولا محرما لان القرآن كما جاء نموذجا للاحكام والاخلاق جاء أيضا نموذجا للبلاغة والفصاحة وان لم يمكن ان نصل الى درجة فى الافصاح والبيان

فى القرآن أنواع كثيرة من ضروب البلاغة لم يعرفها العرب ولا اللسان العربى قبل هذا الكتاب الكريم . تقول أنواع ولا نريد

ما يقصده مفسرو القرآن عندنا من قولهم : « فأما نهج القرآن ونظامه وتأليفه ورصفه فان العقول تتيه فى جهاته وتحار فى بحره وتضل دون وصفه وهو ادق من السحر واهول من البحر واعجب من الشعر » الخ (انظر اعجاز القرآن ص ٨٦) كل ذلك راجع الى التحقيق اللفظى لا الى البحث عن الانواع واسرار البلاغة التى جاءت فى القرآن ولا نريد من البلاغة مايريده هؤلاء . وانما نريد الانواع التى يمكن ان تسمى مذاهب كتابية نريد أنواع القصص وأساليبها التى لم تأت فى كتاب عربى قبل القرآن ولم تكن معروفة عند العرب بهذا الاسلوب . ولم يكن من طبيعة بلاغة العرب ان تصل الى ادراك هذا النوع الفنى الممتع البديع الذى عليه احياء الآداب وبقاء البلاغات وعليه توزن وتقاس درجاتها فى البيان والفنون . ابتكر القرآن هذا النوع القصصى كما ابتكر كثيرا من ضروب التصور والخيال فى وصف الاشياء الطبيعية وأنواع الاحاديث والجدل وغيرها مما أفعم به كتاب الله تعالى من الابداع فى القول

انظروا الى بعض آيات الكتاب الكريم والى متانة التعبير وقوة الحجة ولا سيما نوع الكلام الذى هو عرض منظر من مناظر الحياة الاجتماعية فى الازمان الاولى . ووصف العقول والادراك اذ ذاك ووصف النفوس التى يطلقون عليها الآن (ايسكلوجى) وكيف يكون صاحب الحق شجاعا لانه يقتنع بصدق قضيته وكيف يكون صاحب الباطل ضعيفا لعدم صحة دعواه والدهشة والحيرة ظاهرتان عليه . على حين ان منازله يحاول الانتصار عليه ويريد مغالبته . هذا فى المناقشة التى

كانت بين فرعون وموسى عليه السلام.. فى هذا المنظر الاجتماعى لا نرى قوة البيان لاغير . وانما نرى قوة الخيال والتصور . معاذ الله أن نصف كلام الله تعالى بالخيال وانما نصف الكلام فى ذاته من الوجهة الفنية التى هى أساس الاعجاب ومبناه وهى منبع كل عبقرية تظهر عند أصحاب الفنون

قال الله تعالى يصف مجلس فرعون ونبيه موسى (قال فرعون وما رب العالمين؟ قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إله غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين ؟ قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين (راجع سورة الشعراء) هذا منظر من مناظر الجدال بين مبطل ومحق يدل على شىء من عصور التاريخ وكيف كانوا يتنافشون ويتجادلون . وكيف كانت عقائدهم فى السحر وغيره من العادات وكيف كانت أخيلتهم فيما يسمونه الآن ما وراء المادة وعقائدهم فى عالم الغيب . ولو كان الذوق التاريخى الأدبى معروفا عند العرب والمسلمين لجالت خواطرهم جولات نافعة فى ذلك ولفهموا أشكال هذه العصور . ونسجوا على منوال القرآن الكريم . وكتبوا وألفوا

فى ذلك ولتشوقت نفوسهم الى معرفة أحوال هذه الامم . وظهرت القصص والروايات فى ذلك وكان هذا من دواعى الابتكار والاختراع ولكن فهموا بعض الغرض من ذلك فلم يدركوا غير أن فرعون كان طاغية ملحدا وان موسى نبى الله تغلب عليه وخذله بما أظهره الله على يديه من المعجزات وغفلوا عن الوجهة الفنية التى لاتقل فى بابها عن وجهة الدين اللهم الا فيما يتعلق بقواعد البيان كبيان الجمل الاسمية من الفعلية والتوكيد بان وغيرها والتعريف والتنكير وغير ذلك من صناعة اللفظ الاولية . وحكاية أهل الكهف آية فى الاسلوب القصصى الذى لم يعرفه العرب قبل القرآن. وهى من نماذج الحياة الاولية القديمة. وصورة من صور التاريخ القديم . وفيها من فنون القصص ماهو بعيد عن السذاجة فى الصناعة بل مايدل على متانتها . فانه لم تسرد القصة سردا مملا يحمل الانسان على الملل وانتظار آخر الحديث. بل يتخلل القصة معان اخرى تجىء فى وسط الكلام كقوله تعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى اعلم بعدتهم مايعلمهم الا قليل : الخ وقوله تعالى ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) وكما فى قصة يوسف عليه السلام وما فيها من وصف النفوس الطاهرة والخبيثة وميول الانسان وأهوائه وعاطفة الحب ، وكرم النفس والعفة والحقد وغير ذلك ، ومثل قصة

النمل مع سليمان ومافيها من الخيال البديع والافتنان فى القول ومعرفة سرد الوقائع

ان هذا الاسلوب القصصى الذى يمثل الحوادث التاريخية على حسب ما كانت تدركها عقول أهل ذلك العصر وما كانت عليه الحالة الفكرية الاجتماعية اذ ذاك يمثل ايضا صورة جميلة فنية اشبه بصورة محسوسة طبق الأصل — كما يقولون — وليس الأمر مقصورا على حكاية قصة تاريخية بل أجدر بالنظر من ذلك الافتنان فى وضع هذه القصص فى قالب بديع واسلوب جميل بمراعاة الألوان المختلفة فى الصورة المتقنة الصنع

ان الأسلوب القصصى اقدم اساليب الكتابة عند الامم اذا قطعت المرحلة الأولى فى تصور المعانى الشعرية الاولية المتقطعة — وهو ايضا امتع أنواع البلاغة ، وهو الاسلوب القديم فى بث الحكم والمواعظ ، وقد نسب العلماء النقاد اصله الى الهنود اليوذيين ، قالوا : وعنهم نقل الى الأمم الأخرى ، وجاء النقاد المحدثون فقالوا انه ظهر فى بلاغة المصريين القدماء قبل ان يكون له أثر فى الهند ، وقد جاء هذا الأسلوب فى الكتب المقدسة لأنها جاءت لمخاطبة العقول وليس أبدع من الاسلوب القصصى فى الاستيلاء عليها . جاءت الكتب المقدسة ومن غرضها الهداية والدعوة إلى الحق . والنفوس لاتدرك الحق إدراكا خاليا من الشبهة والشك . فكان من غرض

الانبياء والرسل ازالة هذه الشكوك . ونشر ذلك يحتاج الى براعة فى التعبير وقوة فى البيان والاساليب التى تتسرب فى النفوس فتنال منها وتملك العقول والافئدة فتستولى عليها لذلك كان أسلوب هذه الصحف والكتب المقدسة أسلوبا خطابيا بليغا نريد بالأساليب الخطابية البليغة قوة الأخيلة وتصور المعانى التى تصل الى النفوس بلاحجاب والافتنان فى بلوغ الحجة والزامها السامع واستقرارها من نفسه بأقرب وسائل التعبير وأجمل طرق البيان وفنونه

أما القرآن الكريم فقد جاء فوق ذلك بلغة من طبعها البلاغة . وجاء بمعجزة هى البلاغة نفسها فماذا عسى أن يكون هذا الكتاب فى اسلوبه ومعانيه ؟ جاء بأبلغ أسلوب عربى لم يعرفه العرب قبله وبأبدع طرق التعبير التى لم توجد فى سواه : نعم ان الغرض من ذكر القصص فى القرآن العظة بذكر الامم الماضية والعبرة بما حل بهم من جراء مخالفتهم الانبياء والرسل ولكن هناك جهة أخرى فنية هى ما فيها من البراعة والتفنن فى الأسلوب وهذه الجهة ليست أقل أثرا فى النفس بل من أول وجوه الاعجاز فى القرآن وهى ما يجب أن يعنى به قراء العربية وأدباؤها وربما عدنا إلى الكلام فى ذلك ؟

احمد ضيف